الحلقة (٨)

معنى قول المؤلف رحمه الله " **لا يفني ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد**"

والرد على القدرية والمعتزلة باختصار وكذلك الفرق بين الإرادتين]الإرادة الدينية والإرادة الكونية[

قوله: "**لا يفنى ولا يبيد**"

إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، فالله يقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} والفناء والبيد متقاربان في المعنى والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وأيضا مقرر ومؤكد لقول المؤلف: "**دائم بلا انتهاء** ".

ويقول المؤلف: "**ولا يكون إلا ما يريد**" يقصد الله سبحانه وتعالى وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة -وبالمناسبة القدرية يشترك فيها أكثر الفرق، القول بمقولة القدر والابتداع في القدر يدخل فيه كثير من الفرق، فعندما نقول الجهمية فهم في الحقيقة قدرية، وكذلك المعتزلة هم قدرية، وكذلك الأشاعرة عندهم خلل في القدر وقول بما ينافي ما جاء بالكتاب والسنة في أمر القدر فإذن عندهم مخالفة في هذا وعندهم انحراف في هذا الباب المهم من أبواب الاعتقاد الذي إذا سلبه الإنسان سلب الإيمان كله، فلا يذوق طعم الإيمان من لا يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره- "**ولا يكون إلا ما يريد**"رد على القدرية والمعتزلة وغيرهم ومن نحا نحوهم، فإنهم زعموا بأن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر، وقولهم فاسد مردود بمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح.

سموا قدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية قدرية لأنهم محتجون بالقدر، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب، يعنى الجبر ادعوا بأن الإنسان مقدر عليه كل شيء وأنه مجبور على كل شيء، فيسمون من هذا الوجه جبرية.

أما أهل السنة فيقولون إن الله وإن كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمرُ بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها وهذا قول السلف قاطبة.

فيقولون ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبا أو مستحبا، ولو قال إن أحب الله، حنث إذا كان واجبا أو مستحبا.

➔ نتقل إلى مسألة تقسيم الإرادة إلى نوعين

- النوع الأول: الإرادة القدرية الكونية الخلقية
- والنوع الثاني: الإرادة الدينية الأمرية الشرعية

الإرادة الشرعية [النوع الثاني] هي المتضمنة للمحبة والرضا.

أما الإرادة الكونية [النوع الأول] فهي شاملة لجميع الحوادث، وهذا كقوله تعالى: : {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}
ويقول الله سبحانه وتعالى: حكاية عن نوح: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُم}، ويقوله الله تعالى: : {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيد}.

وأما الإرادة الثانية الإرادة الشرعية تتضح في قول الله سبحانه وتعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر}، وقوله تعالى: {يرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم} {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْت}، فهذه الإرادة المذكورة، مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله سبحانه وتعالى، أي: ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

أما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غير أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلا فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريدا منه فعله.

- مفردة [تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين] "لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام"

الله سبحانه وتعالى قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، قال صاحب الصحاح: توهمت الشيء: ظننته وفهمته وعلمته، فمراد الشيخ رحمه الله في كلامه "**لا تبلغه الأوهام**" أي: لا ينتهي إليه وهم، ولا تصور ولا يحيط به علم، قيل **الوهم**: ما يرجى به كونه، أي يظن أنه على صفة كذا، **والفهم**: ما يحصله العقل ويحيط به، والله تعالى لا يعلم كيف إلا هو، كما سبق بيان ذلك، وإنما نعرفه سبحانه وتعالى بصفاته وأنه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

والله سبحانه وتعالى "**لا يشبه الأنام**"

فهذا تنزيه لله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين، **وفيه رد لقول المشبهة** الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى: : {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير}

وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة في الفقه الأكبر أنه قال: "لا يشبه شيئا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه". ثم قال بعد ذلك: "وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا". انتهى من كلام أبي حنيفة.

ويقول نعيم بن حماد الخزاعي المروزي من أهل الري -أول من جمع المسند في الحديث وكان من أعلم الناس بالفرائض- رحمه الله: "من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه".

ويقول إسحاق بن راهويه رحمه الله: "من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم"، ويقول أيضا إسحاق رحمه الله: "علامة جهم وأصحابه؛ دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة".

دعوى المشبهة: أن أهل السنة هم المشبهة هذه لها قدرها، يعني كل من يخالف أهل السنة يرميهم بالتشبيه، وهذا لاشك أنه محض افتراء، فعندما ننظر إلى سلم الابتداع من أوله: الفلاسفة يرون أن المعتزلة مشبهة، والجهمية يرون أن المعتزلة مشبهة لأنهم يثبتون الأسماء، والمعتزلة الذين يثبتون الأسماء وينكرون الصفات يرون أن الأشاعرة مشبهة لأنهم يثبتون بعض الصفات، وكذلك الأشاعرة والماتوريدية يرون أن أهل السنة مشبهة لأنهم يثبتون جميع الصفات.

انظروا إلى هذا القرب والبعد من الحق، **الأشاعرة أخف من المعتزلة، والمعتزلة أخف من الجهمية،** فالمسألة كلٌ يرمي أهل السنة بأنهم مشبهة لأنهم يثبتون جميع الأسماء و الصفات، وهذا محض افتراء، والله سبحانه وتعالى أثبت ذلك لنفسه، وأثبته له أيضا رسوله صلى الله عليه وسلم، في العصور التي تلت بعد ذلك أصبح أهل السنة يُرمون بألفاظ أخرى غيرها وهي قولهم: بالحشوية لأنهم حشوا بالكلام وما إلى ذلك من هذه الألفاظ، أحببت أن أبين هنا أن أهل السنة يُرمون دائما بالمشبهة من عصر إسحاق رحمه الله، يقول: "دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة".

والسلف يقولون: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبهاً، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غلاة الزنادقة ؛ والقرامطة والفلاسفة، وقال: إن الله لا يقال له عالم ولا قادر، يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه، ومن أثبت الاسم وقال هو مجاز، كغلاة الجهمية، يزعم أن من قال إن الله عالم حقيقة، قادر حقيقة فهو مشبه، وهكذا بالتدرج الذي ذكرته لكم قبل قليل.

الذين يفسرون القرآن بالرأي كالقاضي عبد الجبار والزمخشري وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالرؤية مشبها، وهذا الاستعمال غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

المشهور عند أهل السنة والجماعة أن استعمال هذا اللفظ: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته و أفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة قبل قليل، وأنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرنا، ويرى

لا كرؤيتنا. وهذا معنى قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فنفى المثل وأثبت الوصف، فهذه الآية فيها الرد الشافي والكافي.

والله سبحانه وتعالى حي لا يموت، يقول الطحاوي: "**حي لا يموت قيوم لا ينام**"

وهذا ظاهرا مأخوذ من قول الله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: : {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}، فنفي السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، ويقول الله سبحانه و تعالى: {الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ *نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} ويقول {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} ويقول الله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} ويقول الله سبحانه وتعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، ويقول المبعوث رحمة للعالمين محمد الأمين صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام) الحديث أخرجه مسلم.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه فمن ذلك أنه حي لا يموت والعباد يموتون، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به سبحانه و تعالى دون خلقه، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}..

ومنه: أنه قيوم لا ينام، والعباد ينامون، إذن هو مختص بعدم النوم والسِّنة دون خلقه، فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفة، بل سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته سبحانه وتعالى.

إذن إيراد هذا النفي، إنما هو لإثبات ضده، فالحي بحياة باقية لا يشبَّه بالحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا، {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة وهي للمخلوق لأننا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها، والذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهي دائمة بإدامة الله لها.

العبد عندما تكون حياته دائمة في الجنة، ونسأل الله العافية، الكافر في النار حياته دائمة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن النار والجنة خالدتان باقيتان، فالحياة هنا إنما كانت بما وهبه الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات، لأن الدوام وصف لازم لذات الله سبحانه وتعالى، بخلاف هذه الحياة، حياة الرب سبحانه تعالى الوصف لها لازم لذاتها، وكذلك سائر صفاته سبحانه وتعالى، بعكس المخلوقين الذين هم حياتهم زائلة، وإن كان فيها بقاء فهي بإدامة الله سبحانه وتعالى لها.

واسم الحي والقيوم، مذكوران في القرآن معاً في ثلاثة سور، وأغلب الظن أنهما الاسم الأعظم، الذي إذ دعي الله به سبحانه وتعالى أجاب، فلا يغفل إنسان يدعو الله سبحانه وتعالى، بأن يطلب الله سبحانه وتعالى بهذين الاسمين لله سبحانه وتعالى، ومدار الأسماء الحسنى كلها على هذين الاسمين، وإليها يرجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه

كمال الحياة، أما اسم القيوم لله سبحانه وتعالى فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام.

قول المؤلف رحمه الله: "**خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة**"

فالله سبحانه وتعالى يقول: : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} ويقول الله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، وقوله: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}، {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ}، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنقُصُ المِخيط إذا أدخِلَ البحر) الحديث رواه مسلم.

وقول المؤلف: "**رازق بلا مؤنة**" بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

مفردة]المحي الباعث[يقول الطحاوي رحمه الله: "**مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة**"

الموت صفة وجودية، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم، يقول الله سبحانه و تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، خلق الموت والحياة، والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا، وفي الحديث (إنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار) وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقلبه عيناً يوم القيامة، كما ورد في العمل الصالح: (أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة) كما في حديث البراء بن عازب، وورد: (أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون)، وكذلك قراءة القارئ إلى آخر ذلك من هذه الأدلة الواردة في موضعها، وكذلك فيما يكون في وزن أعمال العباد.